

مجلة علمية ثقافية ، جامعة ، فصلية

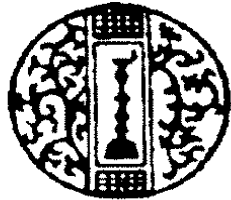
# ثقافة الهند

المجلد ٥٣ العدد ١

٢٠٠٢م

رئيس التحرير

س ضياء الحسن الندوي



المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

ازاد بهاون، نيو دلهي

الهند

(c) <http://nidaulhind.blogspot.com>

## محتويات العدد

### المجتمع الهندي: 29-47

د/أحمد محمد أحمد

## المجتمع الهندي

بقلم: أ.د. محمد أحمد محمد

للهند و مصر علاقات و تاريخ طويل و ثقافة متشابهة، و لكن للأسف الشديد لا يعرف الشعبان عن بعضهما البعض إلا " جواهر لال نهرو" و عبد الناصر" و "حركة عدم الانحياز" و أميتاب بجن" و "الرقص الشرقي المصري"، في حين أن البعض لا يعرف شيئا عن الرقص الهندي الذي يعتبر طبقا للعقيدة الهندوسية واحدا من الطقوس التعبيرية، و شكلا من أشكال الصلاة ... و هذا الرقص لا يختص بالسيدات فقط بل و الرجال أيضا.

أما عن الأدب في البلدين فمعرفة الشعبين عن آداب بعضهما البعض تكاد تكون ضئيلة، فلولا حصول "طاغور" على جائزة نوبل ما قرأ العرب عن آداب الهند، و للأسف حتى ما وصل إلينا كان معظمه عن طريق الغرب، و أنا واثق قبل أن أتحدث عن مشاهداتي للمجتمع الهندي من أن الجيل الجديد و الذي أنا أخاطب بعضا منه الآن سيأخذ على عاتقه هذه

## ثقافة الهند

المهمة و هي نقل بعض الآداب الهندية إلى العربية ليتعرف المجتمع المصري بذخائر الآداب الهندية، و كما يقال " إن الأدب هو مرآة المجتمع".

و من خلال دراستي لبعض أنماط الآداب الهندية وجدت أن هذه الآداب تحتوي في داخلها على تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة و حتى عصرنا الحديث .... و هناك رواية تقول بأن آدم عليه السلام هبط على أرض هذه البلاد.

و منذ أن وطأت قدمي أرض الهند في أواخر أكتوبر ١٩٨٧م و أنا أرى مظاهر التشابه بين البلدين، إذ بدأت رحلتي في الأتوبيس الذي لا يقل جمالا عن الأتوبيس في مصر... الجميع يدفع الجميع من الخلف و الكل يجري وراء الأتوبيس و الرجل يلتصق بالمرأة، إلا أن أفضل شئ هناك هو أن المحصل (الكمساري) لا يضطر إلى شق طريقه بين أجساد الناس كما هو الحال في مصر إنما يظل جالسا على مقعده الخشبي دون عناء.

و عندما وصلت إلى " دهلي" كانت نسبة الرطوبة عالية و بقايا المانسون ( أحد فصول السنة المهمة في شبه القارة) و هذا اللفظ مأخوذ من الكلمة العربية (موسم) فهو يبدأ من شهر يونيه حتى أكتوبر و يستقبله الناس بكل ترحاب باعتباره هبة الخير من الله، برغم ما ينتج عنه من فيضانات مدمرة و إغراق للحقول و اكتساح للبيوت و ضياع للنفوس أحيانا. وقد وصف شاعر الهند العظيم "كاليداس" هذا الفصل من السنة قائلا بأن الرياح تتقدم بغيومها الثقيلة كالفيلة المنطلقة إلى الأمام عظيمة هائلة محملة بأمطار الرحمة و تتقدم و كأنها ملوك على رؤوس جيوشهم - البرق أعلامهم، والرعد طبولهم.

تذكرت على الفور الفلاح المصري الذي يحرق الأرض و يبذر البذور و ينتظر مياه النيل لكي تمنحه الحياة، و رغم أن الهند هي بلاد الأنهار، إلا أنها تعتمد في الغالب على مياه الأمطار لما لها من أهمية بالغة في حياتهم، لدرجة أنهم جعلوا للمطر إله هو "اندرا" الذي هو طبقا لعقائد الهندوس إله الخصيب و النماء. و لكن الشقاوة الحقيقية في موسم الأمطار هذا يقع عبئها على المتسولين و سكان الأرصفة، فهة فئة لا بأس بها إذ ليست هناك أماكن لا يوانهم مما يجعلهم يلتحفون السماء و مواقف السيارات و محطات الأتوبيس و السك الحديدية و أركان الشوارع، و هذه الفئة تمثل أصحاب الأعمال الدنيا من العاطلين و الباحثين عن الرزق اليومي مع أسرهم، فالجو بالنسبة لهم محتمل في أغلب شهور السنة حيث لا يحتاجون إلى غطاء ثقيل يقيهم من البرد، و هنا تذكرت بلدي و حمدت الله على عدم وجود هذه الفئة عندنا، إذ أن الجميع ينام حتى و لو في عشش و أكواخ من الخشب و البوص.

و القارئ للفلسفة الهندية يرى أن التضحية من أهم عناصرها، فالإنسان الهندي وبخاصة أتباع الديانة الهندوسية لا بد له و أن يهب للآخرين بعض الأشياء، و كلمة الآخرين هنا لا تنحصر على البشر فقط، بل تشمل جميع المخلوقات، لذلك نجد أن الإنسان الهندي قبل أن يتناول وجبته الصباحية نجده يضع جزءا من طعامه للطيور و الحيوانات و على سطح المنزل و أمامه، ليس هذا فحسب بل لقد رأيت بعضهم يأخذ الطعام و يذهب به إلى الغابات المجاورة لمنطقته لا طعام الكائنات على مختلف أشكالها و أنماطها سواء الضارة أو النافعة منها.

## ثقافة الهند

و الحقيقة أن التجوال في الهند طويل و مرهق إلا أنه ممتع، فبقدر المشقة و التعب يستطيع الإنسان أن يعرف الهند، فكان الانطباع الأول لي أن هذه البلد هي بلد الفقر و المساوي الأخرى و ذلك لعدم معرفتي الكاملة بالمجتمع الهندي، و لم أكن أدري أن هذا الفقر يشبه الشجرة الجافة التي تحمل ثمارها بين جنباتها و كأن الحكمة التي تقول " لا تنظر إلى الشجرة وإنما أنظر إلى ثمارها" قد أتت إلينا توصفهم.

لقد عشت أكثر من ست سنوات داخل المدينة الجامعية بجامعة "دهلي" فكانت هذه الأيام أفضل أيام حياتي لما فيها من تجارب و خبرات، حيث كان يقوم على خدمتي كثير من الهنود، و أذكر منهم شاب أسمر قصير و كان اسمه "برتاب"، نحيف، تزوج أكثر من مرة، و رغم نحافته و قصر قامته لم تكن الزوجة تستمر معه أكثر من عام، حتى تنتقل هي إلى أعلى و يذهب هو إلى أسفل محملاً بالأطفال، و كانوا لسوء حظه بنات، و البنات في حد ذاتها كارثة داخل المجتمع الهندي.

فالمرأة عامة في مختلف العصور ظلت أداة لظلم الرجل، بالرغم من تعاليم معظم الأديان التي تحث على احترامها، إلا أن البعد عنها ظل أمراً ضرورياً لأن القرب منها يؤدي إلى المعصية، فالمرأة في المجتمع الهندي - حتى و إن كانت صاحبة المرتبة الثانية في الحياة - إلا أنها هي صاحبة القرار و أكثر احتراماً و أكثر استقلالاً و كفاحاً في الحياة، لأن القانون في الهند يساوي بين الرجل و المرأة.

و من الصعب على الشعب الهندي - بصفة عامة - أن يتخلى عن عاداته و تقاليدته حتى و لو كانت لا تتفق مع ميوله في العصر الحاضر، والدليل على ذلك مشكلة Dowry (جهاز العروس) أثناء الزواج، و تعد هذه

## المجتمع الهندي

المشكلة من أكبر المشاكل التي تواجه المجتمع الهندي بما فيهم المسلمين للأسف الشديد، لأنها جعلت المرأة عبء دائم على الأسرة.

ففكرة جهاز العروس بدأت منذ القدم في كتب الرامانيا والمهابهارات و ذلك عندما أراد والد الإله "رام" "الراجا دشرته" أن يزوج ابنه "بسيثا" إحدى بنات ملوك الهند العظماء في ذلك الوقت فقدم لابنته بعض الهدايا و التحف و الجوارى، و من ثم استمر هذا الحال بين الملوك والأمراء فقط، إلى أن تطور هذا الوضع و وصل إلى طبقة الأغنياء من الناس الذين بدأوا المنافسة في تشكيل وحدات اجتماعية منفصلة و كان على رأس هؤلاء الناس بالطبع، طبقة البراهمة التي بادرت بدفع الكثير من المال للزواج بين أفراد هذه الأسرة.

إن تقسيم الديانة الهندوسية إلى هذا النظام الصارم من الطبقات الأربع التي يقوم عليها الدستور الاجتماعي الهندي، أتاح لطبقة البراهما - وهي قمة المجتمع الهندوكي - و التي تمثل أيضا القائمين بالفكر و الدين - النفوذ و السلطان الواسع الذي ضاق به أفراد الطبقات الأخرى.

لقد أدى بعض المصلحين دورا لا بأس به في تخفيف وطأة هذه الفئة تجاه الطبقات الأخرى حينما هاجموا نظام الطبقات ضمنا مما أدى بالبراهمة إلى إدخال قدر يسير من التسامح في مذهبهم الذي يقوم بتقسيم الناس إلى ثلاث طبقات بعدهم، بينما عدوا أنفسهم على أنهم أصحاب الطبقة الأولى و وضعوا لهم أسماء خاصة، لا يستطيع أي شخص من الطبقات الأخرى اقتنائها مثل " بندت" (الكاهن) - "مشرا" - " جها" - "شرما" - "شترويدي" (العالم بالفيدا) و غيرها من الألقاب التي مازالت طبقة البراهمة تسمى بها أبناءها.

## ثقافة الهند

أما الطبقة الثانية فهي طبقة " شترية " و التي يتكون منها القادة والمحاربين حيث أنهم يتميزون بالقوة و الصلابة، لذلك يجب عليهم حمل السلاح دفاعا عن الوطن، كما وضعت لهم أسماء خاصة بهم مثل "سنغ" (أسد) - " شوهان " - "شكلا" و غير ذلك من الأسماء.

أما الطبقة الثالثة فهي طبقة " ويشي " التي تقوم بالزراعة و التجارة لإطعام رجال الدين و الإنفاق عليهم، و هذه الطبقة يقل ذكرها بصفة عامة لما لها من عدم تنافس تجاه الطبقات الأخرى، و من أسمائهم " كبتا"، "بهاتيا"، " أجروال"، " جسوال"، " ملهوترا" و غيرها من الأسماء التي تساعد على معرفة نوع الطبقة التي ينتمي إليها الفرد في المجتمع الهندي.

أما فيما يتعلق بطبقة " الشودر " و هي طبقة المنبوذين، لأنها تقع في قاع المجتمع الهندي و هي تقوم بأحط الأعمال في نظر المجتمع الهندوكي مثل جمع القمامة و غير ذلك من الأعمال الخاصة بهم، و تجدهم يعزلون في أماكن خاصة بهم لأنهم يتعرضون لكافة أنواع الاستغلال من قبل الطبقات الأخرى، حيث أنهم يقضون حياتهم على فتات من العيش دون أدنى إحساس بإنسانيتهم.

وفور وصولك إلى هذه البلاد تستطيع أن ترى التناقض الغريب في التقدم العلمي و التكنولوجي، إلا أنك تجد العديد من هؤلاء البشر الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا يسكنون مع أسرهم في أكواخ من الصفيح والخشب و البوص، و هذا الكوخ لا يزيد بأي حال من الأحوال عن أربعة أمتار و هي كلها تفنقر إلى مرافق الصحة و الصرف.



و طبقا للنظام الطبقي هذا نجد أن الزواج لا يتم بين طائفتين مختلفتين كما لا يحق لأي إنسان تغيير طبقته إلى أن يموت لأن هذا يعتبر خرقا لتعاليم الدين ... فالزواج الطبقي هذا يهيمن على الحياة الاجتماعية الهندية لما فيه من حواجز و قيود، لا يستطيع الرجال و النساء من خلالها اختيار زوجاتهم، فإذا حدث و تزوج رجل من خارج طبقته فان عمله هذا لن يقابل بإحسان. إلا أن بعض المصلحين و المشرعين اجتهدوا أخيرا و أباحوا لأبناء الطبقات الثلاثة الأولى حق المصاهرة فيما بينهم على قدر دون التجاوز إلى طبقة المنبوذين وذلك لوقاية المرأة من أن تفقد وضعها الطبقي.

و الحقيقة أن طبقة الفقراء بصفة عامة هي ضحايا هذا النظام الذي يذهب ضحيته العديد من الفتيات ذلك لسبب عدم مقدرة الأهل على دفع هذا المهر الذي يصل إلى درجة الابتزاز أحيانا من قبل الرجل تجاه المرأة، وتشارك في هذه اللعنة للأسف الشديد جميع طوائف الهند من هندوس و مسلمين و سيخ و مسيحيين و غيرهم من الذين انصهروا في عادات و تقاليد المجتمع الهندي القديمة دون مراعاة أن هناك وحدة تجمع بين كل الأفراد وهي الإنسانية متجاهلين كل محاولة دؤوبة تقضي على الفقر و الظلم و التفرقة بين البشر.

لقد أدرك " غاندي " وغيره من المصلحين بحسهم المرهف بشاعة هذا النظام الموروث من الديانات القديمة فقاموا بثورة عملية لكسر هذه القيود، حيث قاموا بتزويج رجل و امرأة لا ينتمي كل منهما إلى طائفة مختلفة فقط، بل من أكثر الطبقات بعدا، و هما طائفة البراهمة قمة المجتمع و طبقة المنبوذين قاع المجتمع و كانت هذه أولى المحاولات التي يشهد لها التاريخ.

## ثقافة الهند

كما أطلق "غاندي" على طبقة المنبوذين لقب "هاري جن" (رجال، أو عباد الله) و هي كلمة سنسكريتية مكونة من كلمة "هاري" و هي "الله" و "جن" بمعنى الرجل أو عبد، لأنه أدرك أن هذا النظام كان من الأسباب الرئيسية لضعف الهند و خضوعها للاستعمار، فكيف يحررون بلادهم و هم أنفسهم يعاملون ما يقرب من ٣٠% منهم على أنهم منبوذين ... إذ كيف يحق لنا الاعتراض على الاستعمار الذي يعاملنا على أننا منبوذين طالما أننا نحن نعامل أنفسنا المعاملة نفسها.

نعم أنها بلد التناقضات، إذ تلاحظ من ناحية عدم إنسانية هذا النظام و من ناحية أخرى تجد الهندوسي هو أكثر الطوائف الهندية على علاقة ودية بجميع المخلوقات، التي تحيط به أو تعيش في بيئته، و ينمى هذه العلاقات و يغذيها بالعطاء و الصلات و أقرب مثال لذلك كما ذكرت سابقا أن الهندي بمختلف طبقاته قبل أن يتناول إفطاره في الصباح الباكر يضع جزءا من طعامه للطيور و الحيوانات على مختلف أنواعها الضارة و النافعة. تلك هي أبعاد الثقافة الهندية ذات الأبعاد الإنسانية العميقة المتناقضة و التي كما سمعنا يختلط فيها الدين بالفلسفة و بالعلم و السلوك.

و من خلال مشاهداتي للشعب الهندي شعرت بأن الشعب الهندي شعب يعيش حياته بالطول و العرض، إذ جاز لنا التعبير من أجل حياة أفضل دائما فهو يحب الحياة و يعمل و يعرق من أجلها.

ولأن الشعب الهندي يعمل و يكد فانه يشعر أن من حقه التمتع بحياته و لذلك فهو ينتهز فرصة الأعياد و المناسبات المختلفة، لينكب على متع الحياة فيغترف منها ما شاء من أنواعها المتباينة، و ما أكثر أعياد الهند

التي تنصهر فيها جميع طوائف الهند و لا تستطيع من خلال هذه الأعياد أن تبحث عن أي هوية موحدة لطائفة بعينها على مستوى الهند بأكملها.

إن الاشتراك في الانتماء الديني لأي طائفة من الطوائف في الهند يمثل في ذلك الاشتراك في الانتماء إلى الوطن الأم و هي الهند. و الانتماء الديني لا يوفر إلا بعد واحد و جانب واحد و سمة واحدة هي بناء الهوية الهندية.

و الفكرة التي تقوم عليها الهند أنها أرض واحدة تعانق الكثيرين، أي أن الأمة تحتوي على اختلافات في الطبقة و العقيدة و اللون و الثقافة و الأطعمة المحلية و العادات و الملابس، و مع ذلك تبقى أمة واحدة، و طالما ضمت الديموقراطية إلا تطفى إحدى تلك المقومات على الأخرى، و يتحدد بناء عليه مصير أي من أبناء الهند وفق اختلافه أو اتفاهه.

ولاشك أن هناك نزوات انفصالية تؤثر سلبا في جسد العديد من الولايات الحدودية مثل بعض الولايات الشمالية الشرقية حيث تدعو بعض الجماعات إلى الانفصال عن الهند على أسس دينية أو إقليمية أو عرقية، و لا تزال بعض تلك المشكلات تدور رحاها و لكن ليس من المنتظر أن يتأثر أغلبية الهنود بتلك القلاقل.

هذه هي ميزة الهند التي لم أسمع عنها في بلد آخر و أعطتني فترة الدراسة في الهند فرصة كبيرة لدراسة الأدب و الفلسفة و التاريخ الهندي، و كل شيء في هذه البلاد مباح بغير خوف و حرج، لافي السياسة و لافي الدولة و لافي الحب و لافي العمل... كل شيء عندهم قابل للعرض و الكشف.

## ثقافة الهند

على كل حال فإن البساطة الهندية التي لمستها تصاحبها عزة ووطنية جديرة بالاحترام و ليس لدى الشعب الهندي ما يخجل منه فهو يعرف جيدا أنه من شعوب العالم الثالث و يعرف أن الاستعمار أورثه بعض مظاهر التخلف و الفقر، بعد أن نهب موارده، و يعرف أنه يجب عليه أن يبذل الجهد الكبير، لكي يعوض التخلف و الفقر.

أما عن مشاهداتي في جنوب الهند فبدأت عندما ذهبت إلى ولاية "اندهر ابرديش" عندما دعاني أستاذي إلى زيارة هذه الولاية حيث أنه من سكان "حيدر آباد" عاصمة الولاية و كنت أسمع عن نظام "حيدر آباد" في الدكن الذي حكمها في القرن الثامن عشر و حتى انضمامها إلى الوحدة الفيدرالية الهندية بعد التقسيم، شعرت و كأنني في بلد آخر لا ينتمي إلى الهند سواء من حيث اللغة أو من حيث الطعام أو حتى الشكل فهم أقرب إلى البشرة السمراء و قصر القامة التي تذكرنا بأبناء اليمن. و عند تجوالي في هذه المدينة جاءت توقعاتي صحيحة حيث ما زالت تسكنها جالية لها جذور يمنية ضاربة في القدم، و تزدهر تجارة الأحجار الكريمة من عقيق و ياقوت و اللؤلؤ و المرجان و غير ذلك.

ومن هناك أخذني أستاذي إلى المناطق الأثرية التي قرأت عنها في تاريخ الأدب الأردني، و أهم هذه الآثار هي " قلعة جولكنده" أشهر قلاع العصور الوسطى، استولى عليها ملوك الدولة "البهمنية" في القرن الرابع والخامس عشر الميلادي و أصبحت عاصمة الدولة " القطب شاهيه" في القرن السادس عشر إلى أن استولى عليها "اورنكزيب" وضمها إلى الدولة المغولية و ترك خليفته "اصف جاه" عليها.

تقع بقايا هذه القلعة على مشارف مدينة "حيدر آباد" وزيارة هذه القلعة لا تخلو من الانبهار بالفن المعماري الهندي المصمم على طريقة علمية ربما يعجز العصر الحديث عن تفسيرها الآن، فمثلا المدخل الرئيسي لهذه القلعة، هناك نقطة يمكن فيها الاستماع إلى صدى تصفيق اليد إلى أعلى القلعة من مسافة لا تقل عن ٥٠٠ متر، فكانت هذه بمثابة وسيلة إبلاغ للملك الذي كان يسكن أعلى القلعة.

كما أن هناك أماكن كثيرة أثرية في هذه الولاية يحرص كل زائر على زيارتها، يرى فيها عظمة الإنسان على مر الزمان، فلا شك أن تاريخ الإنسانية و تراثها الحضاري ملك لكل إنسان، إلا أن أهم ما يميز هذه الآثار، أن الدخول فيها مسموح للاجنبي و المحلي بنفس التسهيلات دون تمييز أو مفاضلة.

وبالقرب من " حيدر آباد" تقع ولاية " كرناتكا" و هذه الولاية كان جزء كبير منها تحت حكم نظام "حيدر آباد" و هناك عدد لا بأس به من المسلمين في مدينة "بنجلور" و "ميسور" يتحدثون الأردية بجانب اللغة المحلية. و أهم ما يميز هذه الولاية أنها منطقة صناعية و قلعة علمية كبيرة، لما فيها من معاهد للتكنولوجيا، تعلم فيها كثير من الطلاب المصريين. ناهيك عن الحدائق الجميلة التي تنتشر في الولاية، و مازال منظر حديقة " ميسور" فرنداون" بألوانها و أزهارها الجميلة باقيا في ذهني كلما رأيت زهرة أو وردة جميلة في بلدي.

و لا ننسى دور المغول في تصميم الحدائق العامة، التي ما زالت تعرف بأسمائهم، تسحر روادها بجمالها و تصميماتها الأخاذة، و لكن أجمل حديقتان رأيتهما بعيناي في الهند هما حديقة " ميسور" سالف الذكر

## ثقافة الهند

و "شاليمار باغ" في " وادي كشمير " ..... و كشمير، الجو فيها كالربيع في مصر، الشمس دافئة حنون و نسمة الهواء منعشة ... لا هي حارة و لا هي باردة ...

لا تكاد تحس ملمسها على جسمك كأنما هي درجة حرارة الجسم ..... و تجولت في معظم مناطق هذا الوادي الجميل حيث المزارع و الجبال الخضراء ... و أهم ما يميز هذا الإقليم هو أنك تشعر بجمال الطبيعة على وجوه سكانها.

و من "كشمير" إلى "مدراس" في أقصى الجنوب و التي تعرف حاليا بمدينة " تامل نادو" و لغتها المحلية التاميلية و هي من أقدم اللغات الهندية و أغناها بخلفيتها الثقافية ..... و هناك نجد على العكس من كشمير الحرارة الشديدة و الرطوبة التي توجد في المناطق الاستوائية .... و هناك تشعر و كأنك في بلاد النوبة بسبب أن الوجوه هناك شديدة السمرة، و تشتهر بأفضل أنواع الشاي.

إن أهم ما شد انتباهي في هذه الولاية هو أن التبشير المسيحي له أثر كبير فيها، و ذلك بسبب نشاط " الشركة الشرقية" خلال القرن السابع عشر حيث أحرز المبشرون الإنجليز شعبية كبيرة و استخدموا اللغة التاميلية كوسيلة لنشر ديانتهم. كما أنها منبع العلوم التي تغذي الإحساس و العواطف كالموسيقى و الرقص.

لقد أنشأت " الأم تريزا" في هذه الولاية جامعة للمرأة عام ١٩٨٤م و اتخذت الجامعة شعارا لها بقول " نحو المساواة". و قد ساهمت هذه الجامعة في التأكيد على دور المرأة وفي تنمية شخصيتها إلا أن الهدف

الأساسي لهذه الجامعة كان هو إزالة الفجوة المتزايدة بين ثقافة الزوج والزوجة.

إن المرأة في هذه الولاية بالذات تعمل أكثر من الرجل خاصة بين الطبقات الفقيرة، فهي تقوم بمعظم الأعمال الشاقة كتمهيد و رصف الطرق وأعمال البناء تماما كما ترى فلاحات مصر.

و الحقيقة أن المرأة في الهند بشكل عام تعمل أكثر من الرجل أحيانا و لذلك نجدها في معظم الأحياء تنسى أنوثتها و لا تهتم بما تهتم به حواء في بلادنا، من التغالي في زينتها، فالمرأة الهندية ليس لديها جنون المجوهرات، رغم أن الأسطورة تقول أن "سيتا" زوجة الإله "رام" ، أغراها "راون" بالذهب، و "راون" هذا هو الشخص الذي اختطف "سيتا". و بالمناسبة هو إله في الجنوب و يقده معظم هندوس الجنوب وبالأخص في ولاية "تمل نادو".... نعم المرأة الهندية لها ولع باقتناء المجوهرات، خوفا من الزمن و ليس استعراضا، و قد أدى هذا إلى ازدهار صناعة الحلبي لدى الهنود.

و أهم ما يثير إعجابك بهذا الشعب هو حبه للعمل و تكريس كل وقته له، و سعادته بحياته البسيطة غير المتكلفة، و قد استطاع بهذا العمل المتواصل أن يحقق الاكتفاء الذاتي لنفسه في المواد الضرورية الغذائية حتى في ميدان التكنولوجيا.

لقد تعلم الإنسان الهندي النقش و الزهد و حتى ما وصل إلينا من الزهد و النقش في عصورنا السابقة كان مصدره الثقافة الهندية، كما أنهم لا يميلون إلى إقتناء الأشياء الترفيحية مما نراه في بلادنا، كما أن حب

## ثقافة الهند

الإنسان الهندي للنظافة واضحا، إلا أنه لا يهتم بما نسميه الموضة، فما زال الغالبية منهم يلبسون زيهم الخاص، بدأ من أعلى الأشخاص مقاما إلى أدناهم منزلة، وهذا دليل آخر على البساطة والحفاظ على الهوية.

معظم الهنود نباتيين وفي الهند اكتشفت تمسك " أبو العلاء المعري" و المفكر المصري "سلامة موسى" بمبدأ النباتيين في الاعتماد على الطعام النباتي. و مثلما هناك أنواع مختلفة من الزهور فهناك أنواع متعددة من الخضروات و النباتات التي نعرفها و التي لا نعرفها أشهى بكثير من اللحوم بمختلف أنواعها، و في الجنوب نجد معظم الطعام النباتي جيد وطيب المذاق، فالهنود شعب يقدر النبات، حق قدره و يقولون أن معظم الدواء يستخرج من النبات، كما أن الفيتامينات لا توجد إلا في النبات.

أهم ما يميز الجنوب عن الشمال هو ارتفاع نسبة التعليم و روح التسامح ... لمست ذلك عندما ذهبت إلى إحدى ولايات الجنوب و هي ولاية " كيرالا" و التي كانت تعرف قديما باسم "ترافا نكور" و أهم مدنها هي مدينة " كوتشين" و ترافيندرم" و هي كما يصفونها منبع التسامح منذ القدم، لما اتسم به حكامها الذين سمحوا بإنشاء أول مسجد و أول معبد يهودي وأول كنيسة مسيحية، و قد دخلها الإسلام في عهد الصحابة و استقر بها التجار العرب في أقاليم " مالابار" و يعرفون حاليا باسم "الموبالاس" كما تتمتع هذه الولاية بتناسب غريب بين الطوائف الثلاثة المسلمين، و الهندوس، و المسيحيين، هذا بالإضافة إلى أنها مليئة بالمناظر الطبيعية الجميلة التي تحمل الطرز الإنجليزي كبساتين جوز الهند و الصنوبر. و بها ما يقرب من أربعون نهرا يقاطع بعضها البعض، كما أن شعبها مرح للغاية و نسبة التعليم فيها تكاد تكون مائة في المائة، و الطراز المعماري الخاص بهذه



الولاية لا تجده في ولاية أخرى كالقصور الخشبية وكنيسة "فاسكودي جاما".

تعتبر الهند ثاني أكبر دولة في العالم بعد الصين من حيث عدد السكان و سادس دولة من حيث المسلحة و على أرضها تعيش كافة أتباع الديانات و المعتقدات الثمانية الرئيسية في العالم، و الهند ليست دولة متعددة الديانات فقط و إنما هي أيضا مجتمع متعدد اللغات فإلى جانب الإنجليزية هناك ١٨ لغة معترف بها في الهند، و مسجلة على عملاتهم الورقية، علاوة على ألف و ثمانمائة لغة أخرى و آلاف اللهجات، و تشكل الديانة الهندوسية و الدين الإسلامي العقيدتين اللتين يدين بهما أكبر عدد من سكان الهند، كما أنهما الوحيدتان اللتان تنتشران على امتداد الهند و لا تنحصر أن مثل الديانات الأخرى في مناطق بعينها بل أنه على المستوى الإقليمي و شبه الإقليمي يشكل الهندوس و المسلمون أكبر تعداد بين الطوائف الأخرى.

و المجتمع الهندي مجتمع متناقض شأنه في ذلك شأن أي مجتمع ينمو من التخلف إلى التقدم، و يلتقط القيم الجديدة في حين يحافظ على القيم القديمة. إن التأثير الأوربي قد فرض على الناس في الهند طرازا جديدا في التفكير و السلوك و ذلك لأن الأفكار الغربية ذات طابع تجريبي في جوهرها، فقد دخلت في صراع مستمر مع الأفكار و العقلية الهندية السائدة.

و الفرق بين تأثيرنا و تأثرهم بالحضارة الغربية أن تأثيرنا ظل مقتصرًا على الأزياء و بعض العادات و التقاليد الغربية التي تتناسب مع المجتمع الغربي فقط، دون التأثير بالأفكار و العلوم الغربية الحديثة، إلا أن الهنود لا شك أنهم أخذوا بعضًا من عادات الغرب و التهموا و هضموا الأفكار و علوم الغرب إلى أن ذهب البعض بقوله إن اللغة الإنجليزية

## ثقافة الهند

وآدابها هي أعظم ما جادت به بريطانيا على الهند فكانت أهم وسائل الإطلاع على علوم الغرب الحديثة.

وهكذا نشاهد اليوم ثورة صامتة في العادات و السلوك تجري أمام أعيننا، فالقيم الأخلاقية القديمة أخذت تتغير تدريجيا و هذا ينطبق على نظام الطبقات الذي يمثل حجر الزاوية في بيئة المجتمع الهندي.

فالقارئ العربي رغم بعده عن حقيقة المجتمع الهندي إلا أنه يعرف أنها بلد الغرائب و المتناقضات، في ظل هذا و ذلك نجد فيها أخلاقيات متباينة تبدأ من أقصى التزمت إلى أقصى درجات التحرر.

و في الهند خمس أقليات هي المسلمة و المسيحية و السيخية و اليهودية و الزرادشيتة (أي الباريسين)، و الواقع أن كلمة أقلية هنا كلمة مضللة لأنه داخل كل طائفة من الطوائف سواء كانت أكثرية أو أقلية أكثر من هوية. فلو افترضنا أن الدين هو الذي تقوم عليه الهوية الجماعية، فدعني أؤكد لك أن الهندوسية التي تمثل نسبة ٨٠% من السكان كما نعرف، هي في حد ذاتها ليست ضمانا لانتماء الفرد إلى الأغلبية لأن نظام الطبقات يجعل الهندوسي نفسه ينتمي بصورة طبيعية إلى إحدى تلك الطبقات، و هو ما يمثل أقلية في حد ذاته، فلو فرضنا أن الإنسان ينتمي إلى طبقة البراهمة ففي هذه الحالة نجد أن ٩٠% رفقائه الهنود ليسوا كذلك، و الأمر نفسه ينطبق على بقية الطبقات الأخرى.

و لو فرضنا أن اللغة هي إحدى عوامل الهوية الجماعية، فدعني أؤكد لك أنه لولا شعبية السينما، وولع الهنود بالسينما، ما استطاع نصف

## المجتمع الهندي

شعب الهند تقريبا، أن يفهم اللغة الهندية، و رغم ذلك لم ترقى هذه اللغة إلى مكانة اللغة الغالبة في الهند.

و لذلك يسهل على الدارس و الباحث للمجتمع الهندي، التعرف على الأصل العرقي و الموطن و اللغة التي يتحدث بها، من مجرد معرفة اسم الرجل، فكأنهم عندما يعرفون أنفسهم يعلنون بصراحة عن أصولهم العرقية المختلفة، على الرغم من المصاهرة التي تحدث أحيانا بين أبناء الصفوة ذوي الأصول المختلفة في المدن الهندية، إلا أن السمة الغالبة تفضل الزواج في حدود جماعته العرقية.

فالتعددية إذا أمر ينبع من طبيعة الهند نفسها و هو أمر يؤكد تاريخها و ينعكس في تركيبها العرقية، و الباحث يستطيع أن يدرك أن السبب الرئيسي في هذا هو الديانة الهندوسية نفسها، إذ أن هذه الديانة تفتقر إلى الوحدة القومية، كما أنها لا تعرف نظاما واحدا مثل بقية الديانات، فهي تؤكد على التعددية أكثر من أن تنفيها، و المقولة التي تقول أن الجميع أقلية في الهند إذ تتعدم الأغلبية، كلام فيه شئ من الحقيقة و الواقع يؤكد ذلك.

و هناك شيء عجيب في هذا البلد و هو أن الأقليات ليست هي القطاع الأضعف، كما هو معروف في معظم الدول، و الدليل على ذلك "البارسين" الذين يملكون مؤسسات عملاقة مثل "تاتا" وغيره، و يمكننا أن ندلل بهذا على أن الصورة الرائجة بأن الأقليات دائمة المعاناة ليست صحيحة على إطلاقها، على الأقل في الهند.

و أغرب شئ عن هذه الفئة أنهم يشكلون مجتمعا صغيرا بالنسبة لسكان ولاية من سكان الهند، إلا أنهم يملكون ناصية المال و التجارة

## ثقافة الهند

والصناعة في البلاد، وخاصة في المناطق الغربية للهند كمدينة "بومباي" والكجرات"، والأغرب من هذا أن هؤلاء الناس يعتقدون بأن عقيدتهم هي أفضل عقيدة على وجه الأرض. إلا أنهم لا يعلموها لأحد وليس هذا فحسب، بل أنهم يحرمون على أي إنسان لم يولد بباريسيا أن يعتنق هذا الدين، كما أنهم يضعون جنث موتاهم على برج خاص يعرف "ببرج الصمت"، لتنهشها جوارح الطير، حتى لا تدنس بدفنها في الأرض أوحرقها في الهواء، و حاولت الدخول لهذا البرج، إلا أنهم لا يسمحون لأحد بدخول معابدهم و أبراجهم حيث تظل شعلة النار مشتعلة دائما، وهم يقولون أنهم يقدسون النار و لا يعبدونهم، و هذه الفئة هم أتباع الديانة الزرادشتية، التي جاءت من إيران، هاربين من وجه المد الإسلامي، و استقروا في جنوب غرب الهند و عددهم لا يزيد بأي حال من الأحوال عن مائة ألف بباريسي.

لقد عانت الهند من الصراعات العرقية في الداخل و بعض المشاكل الحدودية مع جيرانها، و لكن لا هذا و لا ذاك أوقف المسيرة الهندية نحو بناء دولة جديدة تجمع كل هذه التناقضات التي ذكرت بعضها منها، بل نجحت في خلق الأمة الهندية الواحدة و السر في هذا يعود إلى الجو الديمقراطي والتنوع التي تعيشه البلاد، و الذي يقوم على تداول السلطة بين القوى السياسية، و لذلك لم يحدث في تاريخ الهند أي نوع من الانقلاب الذي ربما نراه و نسمع عنه في معظم البلاد الآسيوية. كل هذا جاء نتيجة الوعي السياسي بين أغلبية الشعب الذي لا يجيد القراءة و الكتابة.

و الحقيقة أن أي شخص ينتمي أن تكون بلده من أرقى البلاد و لذلك فهو عندما يزور مجتمعا جديدا فانه يعجب، بل و ينبهر بكل ظاهرة صحية يراها ترقى بالإنسان و تحترم شخصيته و إنسانيته و هو يريد ويتمنى أنه

## المجتمع الهندي

يكتب عن هذه الظاهرة لعلها تصلح لمجتمعه هذه كانت بعض مشاهداتي عن هذا المجتمع بما له و ما عليه، و لكن على كل حال لكل مجتمع عاداته وتقاليده و تراثه العريق.